من المحرر

مديات الثقافة الشعبية

تاملات

باسم عبد الحميد حمودي

غدا الحديث والحوار حول الثقافة الشعبية يتطلب صبرا لايضاح ان ما يطرح من مواد تنفيذية يدفع باتجاه ضرورة البت والتفريق بين عدة مصطلحات تستعمل احيانا –وعن طريق الخطأ – بديلا لبعضها مثل : الفولكلور (الذي هو التراث الشعبي) والثقافة الشعبية والمأثورات الشعبية والادب الشعبي والفنون الشعبية .

ودرجت بعض الدوريات اليومية والفصلية على الخلط بين المصطلحات حيث عنونت الصفحة المتخصصة بالفولكلور على أنها متخصصة ب(الادب الشعبي والفولكلور) أو متخصصة ب(الفولكلور والثقافة الشعبية) .

ولغرض ايضاح هذه (التجاوزات) نقول :

١- ان الفولكلور ترجم الى العربية بمصطلحي التراث الشعبي – الماثورات الشعبية ، وان اغلب الباحثين العرب يميلون الى استخدام المصطلح الاول الذي يبدو أكثر غنى ،واكثر تجسيدا لمصطلح الفولكلور .

٢- أن الادب الشعبي يعني فنون القول الشعبية وهو جزء من التراث الشعبي ،كما أن (الفنون الشعبية) تشكل جزءا من التراث الشعبي،ولا يصح استخدام الجزء بديلا عن الكل الاشمل .

٣- الثقافة الشعبية تعني تغلغل التفاصيل الشعبية في وجدان الفرد والمجتمع وتجسيد مختلف اصناف الفولكلور (التراث الشعبي) من خلال الكتابة والتحليل لمفردات الفولكلور وربطها بالدراسات الفولكلورية المقارنة ، وبذلك شكلت الثقافة الشعبية الوجه الناصع للوجود الفولكلوري واغنته بالبحث والتنقيب ، الثقافة الشعبية –بهذا – هي المدون الموصف لكل الماثورات العملية واليدوية (الغناء - الرقص الشعبي – الازياء – رسوم الجدران –الوشوم –المعمار الشعبي ..الخ) اضافة لتدوين وتحليل المدون والمروي من اصناف الادب الشعبي .

٤- بذلك لا تكون الثقافة الشعبية بديلا للادب الشعبي وفنونه المتعددة، بل هي القراءة المستمرة للفولكلور والعناية بنظرياته التي هي جزء اساسي منها ،ذلك أن الثقافة الشعبية بمجملها هي التجسيد الحديث لفنون وطرائق البحث الفولكلوري.

من خلال الكتابة والتحليل لمفردات الفولكلور وربطها بالدراسات الفولكلورية المقارنة , وبذلك شكلت الثقافة الشعبية الوجه الناصع للوجود الفولكلوري واغنته بالبحث والتنقيب , الثقافة الشعبية –بهذا – هي المدون الموصف لكل الماثورات العملية واليدوية (الغناء - الرقص الشعبي – الازياء – رسوم الجدران –الوشوم –المعمار الشعبي ..الخ) اضافة لتدوين وتحليل المدون والمروي من اصناف الادب الشعبي

صـــور مـــن الـبـطـولـة الـشـعـبـيـة

إبـــراهـــيـــم ابـــن عـــبـــدكـــه

محمد علي محيي الدين

يعشق العرب البطولة والشجاعة،ويحترمون القوة،لذلك حفلت أخبارهم وأساطيرهم وحكاياتهم بالكثير من قصص الشجاعة والفروسية،فكانت الملاحم العربية تعرض صورا شتى للبطولة الفردية وكانت تغريبة بني هلال وقصة سيف بن ذي يزن ومغامرات عنترة بن شداد وحكاية الزير سالم وغيرها من الملاحم العربية نقلت لنا صورا عن بطولات فردية كان لها تأثيرها في التفكير الشعبي .

وامتدادا لهذه البطولات ظهرت الكثير من الأسماء التي اشتهرت بالشجاعة في مختلف العصور والأزمان ،متواصلة الحلقات في سلسلة لم تنقطع حتى اليوم،فكان لكل عصر أسماؤه التي جعلها الخيال الشعبي كالأساطير،وفي العهد العثماني وبدايات الاحتلال البريطاني عندما حدث تخلخل في قوة الحكومة وامتداد سيطرتها على المدن والقرى،ظهرت أسماء الكثير من الشقاوات المعروفين باندفاعهم وشجاعتهم وحميتهم وأخلاقهم التي استحوذت على مشاعر الناس،و(رجال الليل) في القرى والأوساط العشائرية الذين أصبحوا المثل الأعلى للناشئة الريفية،فسار الكثيرون على منوالهم،وحاولوا تقليدهم،فكان من متممات الرجولة في المجتمع الريفي أن يقوم الشاب بأعمال تلفت إليه الأنظار،فتوجه الكثيرون منهم نحو السرقة(حرامية) ليظهروا للآخرين شجاعتهم وفروسيتهم وشدة بأسهم،فشاركوا في أعمال السرقة والسطو والنهب وسلب المسافرين،وجلب الغنائم،وكانت الأسر تشجع أبناءها على ولوج هذا الجانب ليكون لهم مكانتهم بين رجال العشيرة ،فينظر الناس لهم بالتجلة والتقدير ويأخذون مكانهم في أعين الفتيات اللواتي يعشقن الشجاعة والسطوة والبأس،وهناك الكثير من القصص الذائعة الشائعة في مجتمعنا القديم ربما نتطرق إليها في فرصة قادمة.

هذه المقدمة بداية للحديث عن رجل ملأت أخباره الدنيا تلك الأيام وجعلته المخيلة الشعبية أسطورة يزجى بها الوقت أو يحلو بها السمر،فيتناقلون أخباره ووقائعه وسط هالة من الإعجاب والتقدير،ذلكم هو إبراهيم عبدكه الذي سنتناول سيرته في هذا المبحث.

ولد إبراهيم ابن حسن عبدكه أواخر القرن التاسع عشر ونشأ في بدايات القرن العشرين في قرية(ذيابه) التابعة لناحية أبي صيدا قضاء المقدادية (شهربان) لواء ديالى،وهو من عشيرة (السمرلية) الكردية الفيلية التي سكنت في قرى ونواحي ديالى وعملت في الزراعة وتربية الحيوانات،وفي عام ١٩١٩ حدث نزاع بين والده وأحد أبناء القرى المجاورة ما أدى إلى مقتله،فقام إبراهيم بالاتفاق مع أخيه وأبن أخته على أخذ الثار وغسل العار على عادة المجتمع آنذاك،وأخذوا يتربصون بالقاتل حتى عثروا عليه فحدثت معركة حامية بين الفريقين قتل فيها القاتل وثلاثة من أقاربه،فأضطر إبراهيم وجماعته إلى الاختباء والخروج على السلطة ومقاومة القوات التي تحاول إلقاء القبض عليهم فاتخذوا من بساتين المنطقة العصية ملاذا لهم ،وأصبحوا من الأشقياء الذين يمتهنون القتال للبقاء على قيد الحياة،وأصبح مضرب المثل في الشجاعة والبسالة وحديث الناس في نواديهم ومجالسهم وتخلق بأخلاق ظرفاء اللصوص فكان يتورع عن مهاجمة الضعيف ويأخذ الإتاوة من الغني ليسد عوز الفقراء، ونصيراً للمظلوم وحسب ما تناقلته الروايات والأحاديث والألسن والأمثال الشعبية التي تناولت تلك الحقبة الزمنية وعجزت الحكومة عن القبض عليه،فوضعت مكافأة كبيرة لمن يمسكه حيا أو ميتا،فكان الأكثرية إلى جانبه لما اتصف به من أخلاق جعلته محبوبا من الجميع.

وكان هناك شقي مشهور هو نجم زهو العزاوي أنخرط في سلك الشبانة وعمل جاسوسا للسلطة وقام بتعقب إبراهيم من مكان إلى آخر فقتله ابراهيم،فكان ذلك سببا أضافيا لحنق السلطة ومحاولة قتله أو إلقاء القبض عليه ،وزاد الطين بله مشاركته في ثورة العشرين المجيدة فقد قام في أوائل أيلول ١٩٢٠ بمهاجمة مدينة بعقوبة وأطلق النار في جوانبها ما أرعب الانكليز وجعلهم يهربون ويلجأون إلى الحامية ،ومهد لعشائر الكرخية التي جاءت بعده احتلال المدينة،وعاد إلى شهربان للمشاركة في هجوم الثوار على مركز المدينة ثم توجه إلى خرنابات للمشاركة في مقاومة الإنكليز بعد تمكنهم من أعادة السيطرة على المقدادية وبعقوبة،وعلم الإنكليز بوجوده في خرنابات مع رجال المقاومة فوجهوا قوة كبيرة لإخضاع القرية وهاجموها بالمدافع وقتلوا العشرات واعتقلوا المئات ولما عرفوا بفرار إبراهيم أطلقوا سراحهم، وقاموا بنصب الكمائن ومتابعته أينما حل أو ذهب حتى تمكنوا من إلقاء القبض عليه في حزيران ١٩٢١ في قرية ضباب التابعة لقضاء شهربان،وقد ذكر المرحوم الدكتور علي الوردي إن إبراهيم عبدكه التجأ إلى مدينة المحاويل وأقام لدى احد شيوخها وكان متنكرا لا يعرف شخصيته إلا الشيخ ،وذات يوم كان أبناء البلد يتبارون بالرمي على أهداف فشارك معهم وكان المجلي بينهم في إصابة الأهداف،ما جعله حديث الناس وشبهوه بابن عبدكه لدقته في التصويب وإصابة المرمى وقد ألقت الشرطة القبض عليه وهو طريح الفراش لإصابته بالحمى حيث فوجئ بالهجوم عليه ونقل إلى بغداد وسيق إلى المحكمة التي حكمت عليه بالإعدام شنقا حتى الموت لقتله موظفا حكوميا فتلقى الحكم بشجاعة ورباطة جأش،ثم أحيل القرار إلى محكمة التمييز التي أختلف أعضاؤها في الحكم فكان الحكام الإنكليز إلى جانب إعدامه فيما عارضه اثنان من الحكام العراقيين فصودق القرار بموافقة الثلاثة ومعارضة الاثنين ما دفع المحامي معروف جياووك إلى معارضة الحكم ونشر ذلك في الصحف المحلية طالبا من ملك البلاد عدم المصادقة على التنفيذ، وإحالة قضيته إلى

إبراهيم ابن عبدكه

محكمة الجزاء الكبرى المشكلة برئاسة القاضي الإنكليزي ومن وعضوية كل من عبد المجيد الياسين ويعقوب سويدة وبتهمة قتل موظف حكومي والذي نقضه المحامي المذكور أمام محكمة التمييز برئاسة القاضي الإنكليزي بريجار وعضوية داود سمرة وصالح الباججي وسليمان فيضي ورشيد عالي الكيلاني حيث رفض الأخيران التصديق على حكم الإعدام بالرغم من الضغوط التي مارسها المندوب السامي السير برسي كوكس.

ويذكر سليمان فيضي في مذكراته انه ورشيد عالي الكيلاني عارضا الحكم بالإعدام لان المقتول لم يكن موظفا حكوميا وإنما جاسوسا للانكليز،وعند خروجنا من المحكمة صفق لنا الآلاف ممن كانوا يتابعون مجرياتها وغصت بهم المحكمة والشوارع المحيطة بها،ويقال إن الشيخ مهدي الخالصي والسيد محمد الصدر كان لهما الدور الكبير في إنقاذه فقد أرسل الخالصي رسالة للملك أشار فيها إلى الأعمال الكبيرة التي قام بها إبراهيم في الثورة فيما واجه الصدر الملك مذكرا إياه بان إبراهيم كان من الثوار الذين أسهموا بإيصاله إلى العرش،وقد كان إبراهيم عبدكه على علاقة بالكثير من شيوخ العشائر الذين يكبرون فيه شجاعته،فكثرت الوساطة لإطلاق سراحه بعفو ملكي إضافةً لتوسط إلى المس بيل في اللحظات الأخيرة بشكل مفاجئ لكون أبن عبدكة حماها في يوم من الأيام وأوصلها إلى حدود بغداد سالمة بعد أن أسرها قطاع طرق في محطة شهربان ولخشية الملك من برسي كوكس المندوب السامي أحتفظ بأوراق الدعوى في مكتبه لمدة عامين وعندما بدل المندوب السامي أستبدل حكم الإعدام بالسجن لمدة خمسة عشر عاما وأطلق سراحه عام ١٩٣٢ وخضع لمراقبة الشرطة ثم استخدم في مديرية آثار بابل عام ١٩٣٣ وأنصرف لحياة الدعة والاستقرار وعاش في مدينة الحلة التي أصبح أبنا من أبنائها لما عرف عنه طيبة وخلق كريم.

وذكر الأستاذ جعفر هجول في كتابه الحلة بين العشق والانتماء « انه مربوع القامة مشدود الجسد اسمر اللون عظيم المنكبين قاسي الملامح واثق الخطوات حاد البصر قليل الكلام محاط بالغموض والاحترام والمهابة يتناقل أهل الوردية عنه الأساطير في الشجاعة الخرافية والبطولة والشهامة والقوة الخارقة والماضي الفريد بإحداثه وأمجاده الشخصية «وفي مساء ١٩٥٤/٩/٥ عند عودة إبراهيم من المقهى استراح على ضفة النهر تحت أشجار الكالبتوس الشاهقة مقابل بيت الوزير السابق سلمان البراك ،وقد كمن له أبن أحد ضحاياه ففاجأه وأطلق عليه النار فخر صريعا ويقال أنه قال له «إبراهيم أجيتك أخذ الثار»فسأله من أنت قال أنا أبن نجم العزاوي الذي قتلته وأنا في بطن أمي فرد عليه «حقك» وعندما هرب القاتل انطلق أهالي محلة الوردية للبحث عنه فامسك به المدعو(عبيد صخيلة السودة) وسلمه إلى الشرطة، وفي لقاء للأستاذ هجول مع القاضي خليل اسكندر الجبوري جرى الحديث عن الماضي وجرهم الحديث إلى مقتل إبراهيم فذكر انه كان المكلف بالتحقيق وعندما أراد تثبيت إفادة إبراهيم سأله إبراهيم عن القاتل فاخبره انه سهيل ابن نجم العزاوي فقال لقد قتلت أباه وهو في بطن أمه ،انه رجل ولذلك أني متنازل عنه وليست لي دعوى ضده ولا أطالب بأي تعويض منه أو من غيره،وقد أقيمت له الفاتحة في مدينة الحلة من قبل أبناء محلة الوردية باعتباره ابنا من أبنائها وجاء أهله من ديالي فكانوا ضيوفا أعزاء على والد الأستاذ جعفر هجول.

ورجل بمثل هذه الشهرة وهذه البسالة والقدرة على التخلص من هجمات الشرطة تحاك حوله الأساطير ويختلط الواقع بالخيال ويضخم الخيال الشعبي ما قام به من أعمال وينسب إليه الكثير الذي لا يخلو من واقع فيقال أنه فوجئ ذات يوم بكمين لرجال الشرطة في أحد البساتين وكان الهجوم صاعقا ومكثفا فاتخذ من أحد الأنهر دريئة وقاوم الهجوم بكثافة نارية مركزة ما جعل الشرطة تلوذ بالفرار،وأن الكثير من أفراد الشرطة كانوا يلتقون به في بعض الأماكن فيغضون النظر عنه خشية ورهبة،وأنه كان أشبه بالحارس للمنطقة التي يقيم فيها فلا يجسر اللصوص على سرقة المنطقة أو القرية وكثيرا ما واجه اللصوص وأفشل خططهم في سرقة الآمنين،وكان الناس والضعفاء منهم يلجأون إليه إذا سرقت أغنامهم أو ممتلكاتهم فيعيد إليهم المسروقات دون أن يأخذ أجرا على ذلك(الحلاوة) ،ويقوم بنصرة الضعيف إذا اعتدى عليه أحدهم، ما جعله محبوبا من الناس ويقدمون له المساعدات عند تعرضه لهجوم من السلطة ولا يشون بمكان اختفائه رغم المكافآت العالية التي كانت السلطة قد وضعتها للقبض عليه،ولم يكن في منظور الغالبية من الناس خارجا على القانون بل كان يمثل في نظرهم القانون الحقيقي لأن ما يلاقونه من الشرطة من عنت وإرهاب وأتاوات يجعل إبراهيم مثلا أعلى لما يجب أن يكون عليه رجل القانون.

مـن المـتـن المـطـمـور .. أشـعـار نـسـاء الـريـف والـبـاديـة وأقـوالـهـن

جودت جالي

كنت، وحتى بلوغي مرحلة الكهولة، أختلف الى أرياف أقربائنا وأنسبائنا، وخرجت مرات مع عزبهم (في لهجتهم لفصل الربيع حالتان... الريع عندما يكون الربيع غنيا بالمرعى، والمحل يعني الجدب لقلة الأمطار التي سقطت في الشتاء ، وعزبة بكسر العين وتسكين الزاء هي القسم من العائلة يخرجون وقت الربيع بالأغنام أذا كانت كثيرة العدد) الى البادية (هذه الحركة الموسمية تحدث في مناطق تشمل بادية الكوت حتى البادية غرب العراك (العراق) وهو أسم الفرات الأوسط حصرا عند البدو لكثرة مزارعه وبساتينه).

سمعت منهم النوادر والأمثال، سجلت البعض ونسيت البعض الاخر. هذا البعض المسجل فيه مايخص النساء الريفيات، أمهاتي وخالاتي حتى ولو لم تربطني ببعضهن قرابة، مازالت أسماؤهن محفورة في ذاكرتي هي ومعانيها، (شمسه) و (كميله) و(شذره) و (مغاصه) و (بيرغ) و (بركة) و (حظيه) و (كيفيه).... وكما ترون لم يكن بينهن طبعا(ميرفت) ولا (أشجان) ولا حتى (نيران)! كان بامكان أحداهن، مع خضوعها وطاعتها للرجل من أهلها، أن تمسك بالرجل الغريب وتصرعه أذا تعدى حدوده، تعرف تماما متى تكون منقادة ومتى تأخذ بزمام الأمور. يستيقظن باكرا في الغبش لكي يجمعن الحطب لنار التنور والأفطار، والحشيش للأبقار ويحلبنها (توجد حلبتان... حلبة الرواح من المرعى وقت الغروب ولذلك يقال في المثل يسرح ويروح، وحلبة أخرى في الصباح الباكر قبل الرعي (السراحة) ويطلق على هذا الرعي (النشر) أيضا يعني نشرها في المرعى، وحين تجمع لقضاء الظهيرة أو الليل يقال لمكانها (مراح) وهو ليس (المربط) الخاص بالدواب).

تنجز النساء كل هذه الأعمال قبل أستيقاظ الرجال الذين يقضون الليل في الحراسة (النطاره) ولابأس أن يكلفونا نحن الصبيان بالمناوبة معهم في أوقات محددة من الليل يعرفون بخبرتهم أن لاخطر محتمل فيها دون أن يعطونا صلاحية أطلاق النار بل أيقاظهم عند اللزوم، وغالبا مايكون واجبنا قبل انتصاف الليل أو عند الفجر المضيء. كنا نلزم أماكننا قربهم وهم نائمون لكي نوقظهم أذا حدث طارئ، وكان أكثر خوفنا من الذئاب ولكن لاتخف وأنت تحرس مادام (.....) يحوم في الأنحاء (لن أذكر أسمه الخاص فهو من الأسماء المشتركة بين الحيوان والأنسان خشية التأويل السيئ أو الألتباس!)، ذلك الكلب المغوار الأبتر الذي لو كان سائق الشاحنة، الذي دهسه على الشارع العام في بادية شرق الكوت، يعرفه كما عرفناه من بين كلاب الحي لتربع بين نساء عربنا (العرب أذا كان تجمعا لعدة بيوت بلهجة البدو ومن ينحدرون منهم ولو كانوا في الريف، أو السلف بلهجة الجنوب، والجرية بلهجة الغربية) اللائي بكينه، وبكاه مثلهن بكاء مرا، فما قتل ألا كلب كان يوصل الأطفال الى المدرسة الريفية الطينية الحصرانية عبر الشارع ثم، كأنه عالم بالتوقيت، يذهب للقائهم ويحرسهم في طريق العودة حتى بيوت أهليهم، وفي الليل يتحول الى سبع ضار فيبطش بالذئب كما يبطش بكلب دخيل. أذا كنت غريبا وراك مع أهل الدار في حالة من الود عرف أنك قريب وتركك تتجول حيث تشاء، أو ضيف (وصدق أنه كان يستطيع أن يحدد بالضبط) فلا يغفل عنك، أما أذا كان الأمر بخلاف ذلك فالفاتحة على روحك. لكنه لم يرحل عن الدنيا دون ذرية فيها العوض.

مكر النساء وعفتهن

لطالما تساءلت متى تجد تلك النسوة الوقت للحظات حميمة مع الزوج وهن يقمن بكل تلك الأعمال نهارا وليلا بصبر ودأب. أنا لا أقول كما يقول النسويون أنهن كن ينفردن دون الرجال بالشعور بالقهر والأنكسار والضعف لاينجيهن منه الشعور برفعة الحياء وعفة النفس والقدرة على التأثير في قلب الرجل المهيمن. نعم... كن يعرفن طبعا شيئا أسمه المكر ويمارسنه ويترنمن به تعويضا نفسيا عن حالة الضعف. عندما كان أقرباؤنا يمتلكون من الشياه والماعز وحتى الجمال ولم تكن العلاقات الأقطاعية بشرورها المعروفة عند أهل الجنوب مألوفة عندهم لم يكونوا قد غادروا حالة البداوة تماما بعد، وقد أدركت هذه المرحلة الأنتقالية. كنت أرافق الحاصودات الى الحقل وأنا صبي وأجلس معهن وقت الغداء حول طعام بسيط ولكنه غني بمشتقات الحليب والتمر الجسب وخبز الشعير، فيتسلين بعد تناوله بوسائل منها أن تضع أحداهن في راحة يدها حبة دوسرة (وهي كالسنبلة بالضبط تميل الى السواد وتنمو مع سنابل الحنطة والشعير ولكن حبوبها تعزل قبل الطحن لأنها تجعل الخبز مرا)، تبصق هذه الفتاة في يدها على الحبة وتردد(شلون مكر النسوان يالدوسره؟ شلون مكر النسوان يالدوسره؟....) هكذا بنغمة ترقيص فتأخذ الحبة، ويااللعجب، بالدوران داخل البصقة كأنها تستجيب للترقيص وكنت أنا أراقب مندهشا (مكر النسوان) يدور في راحتها نشوانا. ولهن حكايات يرددنها عن كيد المرأة ومنها أن أمرأة تزوجها رجل من غير قومها ورحل بها الى أرض بعيدة في زمن لم تكن فيه المواصلات متيسرة فمر بها مسافر عابر (يقال للمسافر العابر طارش) وهي جالسة في ظل شجيرة برية ومعها أطفالها وقد أستبد بها وبهم الجوع ورثت ثيابهم فسألته عن وجهته فقال أنه يقصد الديرة الفلانية. فرحت لأن الديرة التي يقصدها هي ديرة أهلها وحملته وصية هذه الكلمات لأخيها:

من الضيم ناكل خبز بنخال/ ومن العره (العري) نلبس جلال (مالايليق ألا بالدواب).

نفذ الرجل الوصية ولكنه لم يجد أخاها فأبلغ الكلمات الى زوجته ومضى في طريقه. كانت هذه المرأة تكره أخت زوجها كرها قديما فقررت أن تكيد لها فحرفت الكلمات وأنتظرت مجيئ زوجها الذي قال لها أنه سمع بأن رجلا عابرا مر بالدار فما شأنه قالت له أن هذا الرجل ألتقى في طريقه بأخته وجاء منها بهذه الكلمات:

من الضيم ناكل خبز حنطه/ ونغمسه بلحم بطه/ ومن العره نلبس البته (لباس ناعم).

فغضب الأخ لما أعتبره من أخته تعريضا به وتعييرا ساخرا. ذهب الى البر وجمع في كيس ثعابين وعقارب وكل ماوجد من الحشرات السامة وقصد الى حيث علم أنها تسكن ليلقي بما جمع عليها. عندما وصل وجدها على الحال التي وصفنا وتلقته هي فرحة وأحتضنته وقبلته وهو حائر لايدري مايصنع. قال لها لماذا بعثت لي بتلك الكلمات وأنت هذه حالك؟ وذكر ما سمع من زوجته فقالت له أنها لم تبعث ألا بكلمات صادقة وذكرت له وصيتها الحقيقية فقال لها متأسفا بأن زوجته قد خدعته ودفعته لينتقم منها ويلقي عليها بأسباب الموت، وفتح الكيس وأفرغه على الأرض فأذا بالثعابين والعقارب والحشرات تحولت الى ذهب وفضة بنفس الرسوم والجسوم رحمة من الله وتعويضا لهذه الأخت البريئة ضحية كيد زوجة أخيها التي دحض الله كيدها...

ولي الامر .. والشعر

أن لولي الأمر (الوالي) من الرجال عند المرأة مكانة عظيمة خصوصا أذا كان أبا أو أخا حتى ولو تزوجت لأنه سندها في الملمات ومرجعها أليه وهو الحامي لها والذاد عنها ظلم الزوج وغيره وتبقى نفسها تتوق لعطفه وسنده. تقول أحداهن:

أخوي المانفعني بركدة أغطاي (تعني رقادها مريضة)/ والمارهن بيته على أدواي (علاجي)/ لو متت لايمشي وراي (لايشيعني).

ولكن أخرى تقول بأباء وشمم:

ياعلة الببداني (التي في بدني)/ ماسولفتهه لكل داني (لكل قريب ويصح أن تقصد الدنيئ)/ ولا لأمي اليابتني (التي ولدتني)/ ولا لبوي (لأبي) الرباني (الذي رباني).

وتنوح ثالثة على أمها التي ماتت دون وجود رجل من أهلها يدفنها:

أسمع ضحج (ضحك) بالمكبرة/ وزلام (ورجال) يدفنون بمره/ أثاري (تبين أن) الزلام مصخره.

تقصد أنهم يدفنونها بتكليف ويضحكون لأمر ما دون الأخذ بنظر الأعتبار حرمة الموقف لأنه لايمس عواطفهم وليسوا متألمين لوفاتها. وتقول على لسان المتوفية:

دفان دفنك ماعجبني/ وتراب مسحاتك لهبني (أحرقني)/ وأريد دفن أخوي وأبني.

الرجال مثلهن ولكن لقهرهم وأنكسارهم أسباب أخرى يغطون عليها بالكبرياء والمروءة والأباء، غير أن لقهر النساء وأنكسارهن طعم مختلف، وحزن مختلف كنت أتحسسه، وأكاد أقول (أتذوق) لوعته في أمثالهن وأشعارهن. الكلمات ذات طابع خاص، أو فلنقل ذات أستعمال خاص قطعا، فيه رقة، والى حد ما، ركاكة أحيانا لأنهن غير محترفات القول شعرا. يمكن تمييز شعر المرأة الريفية (والبدوية) عن شعر الرجل القوي المتين في التعبير والسبك فأذا أخذنا مثلا هذا الشعر (وهنا نقتبس من أشعار المغمورين وغير المحترفين) لرجل من شمر الغربية يفتخر بالكرم والضيافة:

رلتيت (أرتقيت) راس الدير وأشرف على المكير (أسم منطقة قرب الموصل)/ومديت الشوف (النظر) لن (وأذا ب...) الشيخ سير (بتشديد الياء جاء ضيفا)/ يا هلا بالشيخ هوه والمسايير (الضيوف)/ يادلة (يا دلة القهوة) تفوح والبلشتي (من أسماء التبغ) مهير (مهيئ)/ لو عيروني بلابتي (بقومي) ماني معير/ وليه (ولي) خوالك على الجوده (الجود) مشاهير.

قالها هذا الرجل أفتخارا بأخواله أذا قصر الأقربون عن أسباب الفخر أو فقد جوارهم. ولكن بربكم أنظروا الى هذه البانوراما الملحمية بلسان نسوي رسمتها أمرأة من زبيد عندما قتل صنديد من صناديدها (وفي رواية أنه عجيل آل بطيخ الذي كان يحارب الأنجليز ويغير على أرتالهم ومعسكراتهم) حين وقفت تندب (للندابة في حالة الرثاء أسمان نعاية عند أقوام وكوالة عند أقوام خصوصا أهل الجنوب أذا كانت مأجورة محترفة):

شفت خيال (فارس) ياني (جاءني) من الشبيجية (أسم منطقة)/ بيده ماطلي (نوع من السلاح قيل أنه أكبر من الغدارة) والسيف أبو ميه (نوع من السيوف الجيدة)/ يدك (يدك) هامات لو دك المكنزية (لو حشاها بالبارود والرصاص وأطلقه، والمكنزية نوع من البنادق القديمة البارودية ذات ماسورة طويلة)....

ثم بعد هذا الأستهلال الرامز لخطر قادم تخاطب البطل القتيل فتقول:

وينك يذيب هروت (واد في بادية الكوت مشهور بضراوة ذئابه) يالماذيهه (يامؤذي العدو)/ سواهه (جعل العدو)غنم والذيب يرعه بيهه/ لعب بطرادها (بساحة القتال) ذيب النهروان/ يچتف (يقيد) بالزلم (بالرجال) ويكول خرفان (الأعداء بنظره كالخراف)...

وتصف أخرى هدوء أخيها ورزانته في المضيف (ويسمى أيضا الديوان، وأذا كان مبني كالغرفة فهو الربعة عند بعض أهلنا في وسط العراق...) ولكنها لاترضى له هذه الرزانة والسكوت في حالة خلاف يتطلب الحزم ولاينفع معه الأدب فتنشد من خلف ساتر لتسمعه:

كلهه حچت والحر مصبط (ساكت هادئ)/ والأنذال مثل الحرش (نوع من السمك) يلبط/ تريد المجالس سن ضارب (حاد اللسان)/ وحچيه مثل لدغ العجارب (العقارب)....

يقال أنه حين قتل رشيد البربوتي وقفت أمرأة من نساء العشيرة تصف مكانته من كرمه وضيافته فقالت:

خان جغان بالحمدان مبنيه (مضايفه في الأرض الفضاء مبنية وتصفها بخان جغان لكثرة الغادين والرائحين)/ ينهر ذياب (تقصد رشيدا فتشبهه بنهر معروف) يالتجري سواجيه (سواقيه)/ بالليله نكل (نقل للضيوف) ميتين صينيه/ چاني چاذبه (أذا تكذبوني) تشهد الحوشيه (الخدم والحشم)/ تبچي تنوح چنتهم (تبكي كنتهم لكثرة الضيوف وماتسببه لها من التعب) يضيفتهم (ضيافتهم) الحربيه (كأنها ساحة حرب من شدة الحركة لخدمة الضيوف)/ بيهه من يشيل الزاد ومن يمد الفرش كيفيه (بفرح)/ أفتحي الباب للشايل الصينية/ ذوله أهل الكرم وأهل العزوبيه(الضيافة).

من امثال النساء

بقي لنا أن نذكر بعض أمثال النساء وقد يتيسر لنا في المستقبل أن نلم شتات الذكريات ونقدم مقالات مستقلة لشعراء أوشواعر لم يقرأ عنهن.

تقول الواحدة منهن وهي تطحن بالرحى مفتخرة بنفسها ومنتقدة من يقول أن النساء سواء في الجد والعمل أو ربما يقصد خاملات مراوغات:

يامن كلت كلهن سوه/ چلبك عوه (كلبك عوى جوعا)/ وبيتك دوه (سقط)/ يامن كلت كلهن سوه/ خبزك فطير وماأستوه.

ومن أمثالهن:

عشر چواديد (رجال يكدون في العمل ويأتون بالمال) ماتلحك على (لاتسد متطلبات) الهباده (المبذره المسرفه).

ومن أمثالهن أيضا:

صاحت الصايحه على الجريه (القرية) الخربانه.

ومعناه أتهام البريئة التي تنهك نفسها في أعمال البيت كما يشاع أن قرية خربة يخرجون منها قطاع الطرق ليغيروا على القوافل ولاذنب لهذه القرية الخربة التي لاسكان فيها... وتعيشون وتسلمون.

خـبـز الـعـبـاس

عبد الرحمن جمعة الهيتي

ربما كان عصر يوم ربيعي غير اعتيادي، حينما تجمعت نسوة الدرب في السقيفة الواسعة الأرجاء والرائعة التقوس عند السقف المقيرة أرضها بغالي قير مدينة هيت والتي تتباهى بتعدد أنواعه والمتدفق من عيونها مع الماء والنار بان سرجون الاكدي وقف عند أطراف العيون وقال إن هذه أصوات العالم السفلي.

توافدت النسوة متسورات المنقلة الحديدية الممتلئة بالجمرات الوردية المحيطة بالقوري الفرفوري المزين بأنواع التصاوير والزهور ، المتحرك غطاؤه حركات خفيفة إلى الأعلى الناجم عن غليان الشاي ، لولا الخيط القطني الذي يربط المقبض وغطاؤه .

وتوزعت القواري الصغيرة المختلفة الألوان والإشكال .. ولكل امرأة قوري خاص بها ، لقد كن يجلبن بطيب الخبز وقليل من السماق وبارد شراب (الكبر) الصحراوي مخللا ، يأكلن ويتناغمن مع استكاناتهن وهن يرشفن الشاي ، يتحدثن عن الزوج ومقادير المحبة والود وعن الملابس والحلي وحياكة الزبون وصبغ (الكرغد) والعباءة المحاكة عند الحائك الفلاني والمصبوغة (بالدارسيني) و (الجويتي)عند الصباغ القابع في دكانه عند ركن الباب الشرقي .

لكنهن اليوم يتحدثن عن (خبز العباس) النذر الواجب تحقيقه والذي يحتفي بإعداده ما يليق بالمقدم له وعند الفرح بولادة طفل أو بابتهاج نيل تحقيق الأمل وانفراج غم ونيل مراد وما تتمناه النفس من عيش رغيد وارتزاق بغالي عرق الجبين .

و (لمت) النسوة في ذلك اليوم الربيعي بشارة وصول (كايات القير) المنحدرة إلى جنوب العراق مع انسياب نهر الفرات بعد اجتيازها سدة الهندية بسلام حينما جاء « الكارس « معلنا وصول « الغوالي « سالمين بكاياتهم إلى الحلة .

وجاءت المرأة المشوقة القوام المطل وجهها القمري من بين (كرغدها) وفوطتها ابنة الأربعة عشر ربيعا تحمل طبقاً مخصوفاً من خوص النخيل الملون بالألوان الزاهية والمنقوش بالورد والزخارف الرائعة وبه أرغفة الخبز المتفتحة الخدود المكتوية بنار التنور الطيني.

وضع الطبق وتزاحمت الأيدي ترسم دوائر في الهواء فوق الخبز وصلوات على النبي واله وصحبه الكرام ، وجيء بالقدر الممتلئ بالدهن الحر.

وتقافزت الصبيات يحدوهن الأمل في إن يوصلن خبز العباس إلى سابع الجيران وأطلت السيدة الوقور زينب تلقي السلام والتحية بصوتها الممتلئ عذوبة ورقة والأثيرة لدى جيرانها .

إنها جنوبية المولد والسكن اهدين عروسا (للنوخذة) الهيتي قائد سفن الكايات في دوام رحلاته إلى جنوب مدن العراق المتشاطئة على الفرات كانت ابنة شيخ من مدينة طويريج زفت عربونا للترابط والتلاحم المجتمعي .

– وسع للسيدة زينب وقدم لها أول رغيف تناولته بحذر متمتمة بالصلوات والتسليم ، وتقاسمت النسوة أرغفة خبز العباس ووزع إلى كل الجيران والأقرباء والصديقات حتى ولو تخطى جيرة الجيران .

واكل النذر هذا التقليد الرائع وتعقبه دعوات بإشاعة الفرح والسرور في نفوس المدينة وكل مدن الدنيا وفتحت « صندقجة « الشاي ذات الشكل المتوازي المستطيلات والتي لا تتعدى أبعادها ٣٠ × ٢٠ سم والمطلية بالون ألدهني الأخضر ، فيها أماكن مخصصة للاستكانات وأخرى للمواعين وثالثة للخواشيق ومكانا مخصصا للقوري ، وأخرجت أواني الشاي وصفت فوق سطحها ، وملئت شايا ووزعت ابتدءا من الكبر سنا .